إسلاميات
كاتب
مسيحي

6

عمرو بن العاص
قائد طموح.. مع المغنم دائماً

obeikandl.com

obeikandl.com

تمسك نظمى لوقا بالإهداء الشهير الذى يضعه فى كل كتبه عندما بدأ كتابه عن عمر بن العاص وهو:«إلى السائرين فى الظلمة ومن يلوح لهم من أنفسهم فجر جديد وأيضا إلى من يقدسون الحق ويغارون عليه ولا يعدلون به شيئا».

وفى توطئة بين يدى الكتاب يصف نظمى عمرو بن العاص بأنه كان عدة رجال على رجل واحد،فهو ابن أبيه ابن النابغة والجاهلى جواب الآفاق وسفير قريش وعدو الإسلام والمقر بالإسلام ومحطم الأصنام والقائد وفاتح فلسطين وفاتح مصر ومؤسس الدولة والمخلوع وصاحب خدعة التحكيم وصنو معاوية فى جاه الدنيا.

وهذه عنده مستويات شتى من الشخصية البشرية الواحدة،يكاد يكفى كل مستوى منها لحياة رجل بأكملها،واجتماعها كلها فى حياة رجل واحد بعينه أمر يدعو للدهشة فى حد ذاته،وإن كان مرد هذه الدهشة إلى ضخامة من حيث الكم – إن صح هذا التعبير – لأنه يوجز فى فترة عمر رجل واحد ما كان يصلح لجملة أعمار أو لجملة رجال.

لكن هذه الدهشة – على جسامتها – تتضاءل حتى لتكاد تتوارى بجانب دهشة من نوع آخر،وتلك الدهشة التى يثيرها النظر فى كنه هذه المستويات المختلفة من مجالات العمل والسلوك،فإذا اختلاف يصل فى كثير من الأحوال إلى درجة التناقض الفادح ولا أريد أن أقول الفاضح.

ويتساءل نظمى:«كيف يمكن فى نظر العقل الفاحص أن يلم امرؤ على شعث أطراف تلك الخلال كلها فى شخصية متسقة لم تظهر عليها بادرة من بوادر الصراع أو النصام؟وكيف يصح فى نظر العقل الفاحص أن يكون عمرو المجاهد المؤمن هو عمرو الذى يسقط من اعتباره كل وزن لمصلحة العقيدة ومستقبل نقائها،وصلاح أمرها كى ينضج لنفسه على نار الفتنة التى أوضع فيه مغنما من جاه الدنيا وسلطانها

مهما كان جسيما»؟

وتأتى الإجابة:«هذا على الأقل حقيق أن يدعو للدهشة التى ليست مثلها دهشة،أما التناقض الآخر،أعنى انقلاب الكافر عدو العقيدة إلى مؤمن بها مجاهد فى سبيلها،فليس مما يثير دهشة العقل الفاحص لأنه انقلاب فى الاتجاه الطبيعى الذى سلكه كل مؤمن بعد أن كان يرفض الإيمان ويلج فى المكابرة والعناد،فما أشد ما صلح إيمان عمر بن الخطاب بعد أن كان جبارا عنيدا فى كفره وعدائه للإسلام والمسلمين،وما أشد ما صلح إيمان خالد بن الوليد وهو بطل قريش يوم أحد،وغيرهما كثيرون تغنى فيهم الإشارة عن الإحصاء....ذلك أن الإيمان طور طبيعى بعد طور الكفر».

ثم يعود نظمى إلى عمرو،فهو عنده وللمرة الثانية عدة رجال فى رجل واحد،لا يكاد يلم شتاتهم المتباين إلى حد التناقض شئ من الأشياء،ومع هذا جمعهم فى كيان واحد ذلك الرجل الذى حقق من كبار رجال الأعمال ما يجعله جديرا بمكانة بارزة بين أعلام العرب،أليس قد غير وجه الدولة العربية،ومن ثم غير وجه الحضارة والتاريخ إلى يومنا هذا،إذ هو صاحب الفكرة الثاقبة فى فتح مصر،ثم هو فاتحها فعلا بما يشبه المعجزة العسكرية؟

أليس عمرو هو الذى غير وجه التاريخ مرة أخرى تغييرا حاسما فى الدولة العربية الفتية حين انتشل بالرأى الحاذق والحيلة البارعة مصير معاوية من مهاوى الهزيمة،وأرسى خطاه على طريق النصر،فأحدث الحدث الذى لا يدانيه حدث فى تاريخ الإسلام والعرب،إذ تحولت الخلافة الديمقراطية الجمهورية الصائرة إلى الإشتراكية، فصارت ملكا عضوضا يتوارثه آل بيت واحد،لا مكان فيه للديمقراطية، وإنما هو الاستبداد وتسلط الفرد،ونظام المجتمع فيه أدنى إلى الثراة والسراة والطبقية والعصبية منها إلى حكومة التقريب بين الطبقات والتكافل

الاجتماعى واعتبر الناس كافة سواسية كأسنان المشط.

ومرة ثالثة...أليس عمرو هو الذى يرجع إليه الأثر الأكبر فى إجهاض هذا الحلم الرفيع من أحلام البشرية،حتى أسقط فى أيدى الطامحين لقيام دولة الحق والعدل والمساواة وقالوا:وداعا لكل هذا،فبهذا الأثر الضخم فى ذاك نقيضه،فى إقامة صرح دولة العدل وفى تقويض هذه الدولة،وبغير هذا الأثر من الآثار فى معركة قيام الإسلام يستحق عمرو بن العاص أن يكتب عنه الكاتبون.

ويعود نظمى للسؤال مرة أخرى:«ولكن أيستحق عمرو بن العاص أن يكتب عنه الكاتبون بسبب هذه الآثار فحسب،وبسبب هذه الأحداث وحدها»؟

ويجيب:«اللهم لا....إن الأحداث قد تكون جليلة الخطر فى أطوار الأمم والدول والحضارات،وهى بهذا جديرة بالدراسة والبحث والتمحيص توسلا إلى التعلم والاعتبار،ولكن دراسة أطوار النفس الإنسانية فى ضوء الأحداث الكبرى أمر لا يقل عن دراسة الأحداث فى ذاتها أهمية وخطرا،بل تربو عليها فى ذلك أيما إرباء».

إن الأحداث من وجهة نظر نظمى لوقا لا تكتسب وزنها الحقيقى إلا لأنها متصلة بحياة الناس ومصائرهم،فالإنسان – الإنسان الفرد والإنسان المجتمع والإنسان النوع – هو مقياس كل جليل من الأمور والحوادث وغايتها القصوى فى الوقت نفسه،ومن أجل الإنسان وفى ضوء فهم تكوينه وأسرار نفسه وسلوكه يجب أن يكون اهتمام الدارسين الأكبر بأحداث التاريخ....ولهذا كله فإن عمرو بن العاص جدير بالدراسة.

(١)

لكن من هو عمرو بن العاص؟

يقدم نظمى للإجابة على هذا السؤال بقوله:«نحن أبناء آبائنا وأمهاتنا...هذا

شأن سائر الكائنات،لا يستثنى من ذلك النبات،والصنم من حيث يخرج،كما يقول أبو الحسن على بن العباس بن جريج،ثم نحن بعد ذلك وآباؤنا وأمهاتنا أبناء بيئة لها أبعادها الجغرافية والتاريخية والاجتماعية».

ومن هنا فعمر هو ابن العاص بن وائل زعيم بنى سهم،وبنو سهم من أبرز بطون قبيلة قريش،وكانت له منزلة خاصة بين أقطاب قريش بما اجتمع له من قوة الشخصية والاعتداد بالنفس واتساع التجارة وبذخ الجاه وكثرة الأموال،وتشير بعض النصوص إلى أنه اشتغل فى بعض مراحل حياته بالجزارة.

حاز العاص الثراء الطائل والمكانة المرموقة،فموقف الطبيعى بحكم السيادة والنعمة والجاه،أو بحكم الطبقية أن يقف موقف المعاند من دعوة تنادى بالتسوية بين الناس كأسنان المشط،وأن لا فضل لقرشى على عجمى إلا بالتقوى.

وكان طبيعيا أن يعادى العاص دعوة الإسلام ويحاربها فى مقدمة من انبروا لها من المعاندين المستكبرين،وهو موقف تمليه المكانة فى القبيلة،ويمليه الحرص على المصلحة الشخصية ، وتمليه الغيرة على النفوذ المستمد من نظام المجتمع فى الجاهلية،ولم يكن الرجل يرضى لنفسه وهو المعتد بنفسه فى عنجهية أن يكون له فى ذلك المضمار موضع دون الصدارة شأنه فى كل أمر يخص القبيلة فى حرب أو سياسة أو تجارة،ناهيك ودعوة محمد تهدد هذا كله،وتعتبر فى نظر أمثاله تمردا وخروجا على الطاعة يستوجب الردع،ودعوة هدامة تستحق القضاء عليها بكل الوسائل.

كان الأب إذن رفيع العماد،والبيت وطيد المكانة،ولم يكن غريبا بعد ذلك أن يكون عمرو شديد الاعتداد بأبيه وعشيرته،ولا سيما فى الجاهلية أهل الاعتزاز والتفاخر بالأنساب والأحساب....وإن كان عمرو لديه باعث خاص للتزيد فى هذا الاعتداد بأبيه،باعث يجعلنا نسأل عن أمه من تكون.

يقول نظمى لوقا:« أجمع الرواة تقريبا على أنها سلمى بنت حرملة،وكنيتها النابة،من بنى عنزة من قبيلة أسد بن ربيعة،وقد انعقد الإجماع على أنها كانت سبيا،سباها بعض فتاك الأعراب وباعوها فى سوق الرقيق بمكة،وطبيعى أنه جرى عليها ما جرى للإماء عادة فى مدينة كمكة على عهد الجاهلية.

وأهون تصوير لذلك الذى كان من أمرها ما ورد على لسان ابنها عمرو نفسه،قال:«ذكروا أنه جعل لرجل ألف درهم على أن يسأل الأمير عمرو بن العاص وهو على المنبر عن أمه،فسأله:تريد أن تعرف أم الأمير،فقال عمرو:أمى سلمى بنت حرملة تلقب بالنابغة من بنى عنزة،أحد بنى عجلان،أصابتها رماح العرب فبيعت بعكاظ فاشتراها الفاكه بن المغيرة،ثم اشتراها منه عبد الله بن جدعان،ثم صارت إلى العاص بن وائل،فولدت له فأنجبت،فإن كان لك شئ فخذه».

كان هذا كلام عمرو،أما الغامزون فلهم كلام آخر،فعندما شتم عمرو أروى بنت الحارث فى مجلس معاوية بن أبى سفيان ردت عليه قائلة:«وأنت يا بن النابغة تتكلم وأمك كانت أشهر امرأة تغنى بمكة وآخذهن لأجرة؟اربع على ظلعك،وأعن بشأن نفسك فوالله ما أنت من قريش فى اللباب من حسبها ولا كريم منصبها، ولقد ادعاك خمسة نفر من قريش كلهم يزعم أنه أبوك،فسئلت أمك عنهم فقالت:كلهم أتانى..فانظروا أشبههم به فألحقوه به..فغلب عليك شبه العاص بن وائل فلحقت به».

لم يكن ما ذكرته أروى بنت الحارث بدعة،بل هو العرف الجارى فى الجاهلية،فهذه السيدة عائشة تقول:«كان يجتمع الرهط فيدخلون على المرأة فيصيبونها،فإذا حملت ووضعت ترسل إليهم فلا يستطيع واحد منهم أن يمتنع،فإذا اجتمعوا عندها تقول لهم:قد عرفتم الذى كان من أمركم فهو ابنك يا فلان،تسمى

من أحبت أن تسميه فيلحق به ولدها ولا يستطيع أن يمتنع الرجل».

الوضع إذن ملتبس،وكما يقول نظمي:«إن عمرو بن العاص بهذا الشكل ابن سيد ولكن سنده فى السيادة مثلوم ثلما فادحا أليما لنفس الحر الأبى،فما يكون من أثر ذلك عنده؟»

بالطبع حساسية مفرطة من جهة أمه،يعوض عنها تلقائيا بالتزيد من اعتداده وزهوه بنسب أبيه ومكانته ومنعته وثرائه وترفه،ومن ذلك مثلا،عندما عزله عثمان بن عفان عن مصر ولامه على شبهات لحقت ولايته،فإذا عمرو يشتاط غضبا ويقول فى عنجهية:لقد رأيت العاص بن وائل ورأيت أباك،فوالله لعاص كان أشرف من عفان،فإذا بالخليفة الحصيف الوقور يكتفى فى الرد عليه بقوله:ما لنا ولذكر الجاهلية.

كان عمرو بن العاص يتصرف بمنطق التعويض عن الشعور الوجيع بالنقص،يلوذ لياذ المستجير بجاه أبيه،ويبالغ فى التباهى به فى غير موضع للتباهى كى يدرأ عن نفسه حساسة ومضاضة تلحقان به من جهة أمه،ولذلك كان لابد لمثله من مجد شخصى إذن،لابد له من السيادة بأى ثمن،وفى أى حال لأن السيادة لمثله مطلب ليس منه مناص،وليس له بديل،وإلا ظلت قرحة عار الأم تنزف ولا تجد البلسم الشافى أو المسكن الناجع،وهذه ضرورة لا مناص منها لمن كانت له كبرياء عمرو وطموحه،فكأنه يقول بما يحققه من تفوق شخصى خارق،وما يفاخر به من سؤدد أبيه الباذخ:لا يضير من كان له أب كأبى ..ثم كانت له فعال كفعالى،أن تكون له أم كأمى.

(٢)

فى شبابه تسنى لعمرو ذلك الحظ من فنون التربية المتاحة فى بئيته وزمنه،فقد تعلم ركوب الخيل كأقرانه أبناء السادة من قريش فى سن مبكرة،وتعلم كذلك استخدام

السيف فى المنازلة والمصاولة،وحذق حيل العراك والكر والفر،وكلها فنون تعتبر من ضرورات الحياة لعربية لدى الحجازيين عامة ولدى القرشيين خاصة لما تقوم عليه حياتهم من الأسفار البعيدة للتجارة الخارجية - بتعبير أهل العصر الحديث – فى رحلتى الشتاء والصيف.

تعلم عمرو السباحة كذلك إلى درجة عصمته من الغرق بين أمواج البحر فى رحلته إلى الحبشة وهى الرحلة التى سافر فيها ليستعيد المسلمين من بين أحضان النجاشى لكنه فشل فشلا تاما،وهى رياضة أقل شيوعا من الفروسية وفنون السيف والقتال عموما بين أبناء الحجاز؛لأنها أقل ضرورة منها،فليست هذه البقعة المعمورة من الأرض شاطئ بحر ولا تشقها الأنهار التى تجعل السباحة أو الملاحة عنصرا أساسيا لا محيص عنه فى إكتساب الرزق وارتياد مكامنه.

ورغم ندرة من تعلموا القراءة والكتابة من أهالى قريش،إلا أن عمرو كان كاتبا قارئا،وكان حاسبا أيضا،وإن كان كثير ممن يجهلون القراءة والكتابة يعرفون من أوليات الحساب ما يحتاجون إليه فى ممارسة تجارتهم بيعا وشراء ومماكسة فى الأسواق ابتغاء الربح واتقاء الخسارة.

وكما تعلم عمرو القراءة والكتابة فقد نظم الشعر،صحيح أنه لم يكن شعرا من الطبقة الأولى ولا الثانية بين طبقات هذا الفن الرفيع من فنون القول،ولكنه شعر مناسب يدل على فصاحة،وعلى صدق فنى فى التعبير عن مشاعر هذا العربى الفذ وشخصيته ذات المعالم المتميزة،وإن كان أقل من مستوى خطبه وكلماته التى يرسلها عفو الخاطر،فإذا هى أصدق صورة لطريقته فى التفكير وزاوية نظره إلى الأمور.

لقد كانت تربية عمرو بهذه الطريقة من وجهة نظر نظمى لوقا تربية سلبية،وهى التربية التى يكون غاية كل جهد الناشئ فيها أن يتعلم ما يراد له أن يتعلمه،ولأنه

مكلف بأن يتعلمه مسوق إليه،وما لم يطالبه المطالبون،ويلاحقه الملاحقون،ربما بالزجر أو الضرب لما جعل همه أن يتعلمه،ومن شأن هذا ألا يزيد ما يتعلمه على الحد الأدنى الضرورى، الذى لا حيلة له فى أن يجهله وهو سليم البدن والحواس.

أما التربية الإيجابية فهى التى يكون للناشئ فيها إرادة ظاهرة،فلا يتعلم ما يراد له أن يتعلمه فحسب،بل يتعلم لأنه يريد أن يتعلم،وعلامة ذلك أنه لا يكتفى بما لا محيص للكافة من تعلمه ، فيكلف نفسه ما لا تكلفه إياه ضرورات مجتمعه الحتمية،ويطلب ويحصل أشواطا وضروبا من الخبرات والفنون غير شائعة ولا ضرورية لأمثاله.

لكن ما الذى تدل عليه هذه المهارات التى اكتسبها عمرو بن العاص،يقول نظمى:«إنها تدل على طموح فائق،وإصرار شديد منذ بواكير عمره على التفوق والتميز على أمثاله ممن قد يفوقونه فى تمام العروق على حد تعبيره فى شعره،أى من يفوقونه فى النسب الصريح الذى لا ثلمة فيه».

(٣)

لقد انطلق عمرو يزود نفسه بأسباب التفوق والمنعة،ويتعلم تجنب المكاره والمزالق،وينأى بنفسه عن مثل ما اجترحه أبوه فى حقه،ويصبو إلى عصامية تفرده بمكان يعلو فوق مغمز نسبته إلى أمه،ويجعله جديرا بنسبته إلى أبيه،وكيف كان مكانه فى بيت هذا الأب المرموق؟

ولذلك قرر عمرو أن يستقل عن أبيه،فلم يصل من أخباره أنه كان يسافر متاجرا لحساب أبيه،ولكن الأخبار التى وصلتنا تروى أنه كان يسافر بتجارة خاصة به،ولم يصفها أحد بالاتساع الخارق،ولكننا نعلم أنه كان يتاجر فى العطور،يحملها إلى الشام ومصر شمالا،وإلى اليمن والحبشة جنوبا،وكان يتاجر كذلك فى الأدم،وورد فى

أخباره أيضا أنه كان فيما بين مواسم التجارة والارتحال يحترف الجزارة بين جزارى مكة.

لقد كانت لعمرو أسفار كثيرة،ومن هذه الأسفار بدت شجاعته وتدبيره،وهذا هو الدليل على أن تكوينه الفطرى تكوين القائد المطبوع على القيادة وإدراك المعارك بمعناها الواسع،وليس تكوين التاجر الفردى الذى تنحصر شجاعته فى نزال اللحظة الحاضرة واقتحام المواقف لأن اقتحامها والتصدى لها غاية فى حد ذاته،وقيمته فى نظر نفسه رهن بالإقدام من غير تردد أو نكوص.

وهذا بالطبع بخلاف طبيعة عمرو الذى ينظر إلى النصر نظرة أشمل،ويراه الغاية التى يستخدم لها الوسيلة المناسبة،فإن كانت الكر والإقدام كر وأقدم،وإن كانت المراوغة والانسحاب وتأجيل الصدام إلى أوانه المناسب بعد أن يعد له عدته لم يتردد فى المراوغة والتسويف والانسحاب.

وهذا التفريق ضرورى لإدراك الفارق بين عمرو وبين معظم الصناديد من معاصريه وأقرانه،فهم كانوا أبطال اللحظة فى حين كان عمرو بطل التكتيك والاستراتيجية بالمعنى الحربى،وهى آية على أن الأقدار كانت تعده ليكون بفطرته قائدا فاتحا لا محاربا فردا فحسب.

وكان عمرو على جانب عظيم من الاعتداد بنفسه،والثقة بعبقريته وسموها فوق المستوى العادى للقيم السائدة فى بيئته،حيث كان يوزن الرجل باستهانته بالمهالك واقتحامه الخطوب غير مبال بما يكون،فإما الفوز وإما الموت.

ومن بين رحلات عمرو وأسفاره يتأكد أنه زار مصر تاجرا،وأنه شهد من أحوالها وخبر من احتكاكه بالمواطنين وصغار الموظفين ما أطلعه بفطنته الثاقبة على تدهور الحال فيها،وتداعى نظام حكمها،رغم مظهره الفخم،وكأنه الدوحة التى

نخرها السوس فتكفى هبة ريح قوية أو ضربة فأس واحدة لإسقاطها فلا تقوم لها قائمة.

(٤)

وفى حياة عمرو رحلة مهمة للغاية تلك التى خرج منها سفيرا لقريش من أجل أن يستعيد المسلمين الذين خرجوا إلى الحبشة طالبين الغوث من النجاشى.

إن الحرب على الإسلام بالنسبة لعمرو بن العاص لم تكن إلا فرصة للعمل السياسى،كى يثبت لقومه كفاءته ونفعه لهم عند الشدة،فكان مكانه الطبيعى أى بحسب طبعه ضد الإسلام لا فى صفه،وبمنطق الطموح تفانى فى خدمة قضيته التى وضع نفسه فى خدمتها وارتجى النفع،ولم يكن الأمر يؤمئذ أمر حرب،فما كانت شوكة المسلمين قد بلغت هذا المبلغ،ولكنه كان أمر نكاية وكيد،ثم حين فروا بعقيدتهم إلى المنفى لم تجد قريشا خيرا من عمر وفى الدس لهم عند النجاشى؛لأنه صديقه من جهة،ولأنه من جهة أخرى بارع الدهاء واسع الحيلة نافذ الفكر.

ولولا ما هو ظاهر من قوة شخصية النجاشى واستقلال تفكيره وحبه للعدل واستقامة الإجراءات لكان حريا أن ينجح فى الإيقاع بأولئك المهاجرين،وقد سلك طريق رشوة بطانة الملك وائتمر معهم فأحكم المؤامرة،ولما خاطب الملك أحسن الحديث بلباقة الدبلوماسى الذى يهون للطرف الآخر قبول ما يطلبه إليه متلطفا.

ولم يكن فشل عمرو عن خرق أو قلة تدبير أو سوء تعبير،بل لأمر لا حيلة له ولغيره فيه،وهو نزاهة النجاشى نزاهة غير مألوفة فى ملوك ذلك العصر،بل ملوك سائر العصور،قبل أن تكون هناك حقوق تؤثر للإنسان فى القانون الدولى،وإنما هى النخوة الفردية فى الفلتة من الرجال بين حين من الدهر وحين.

إلى هنا والدبلوماسية أو التدبير السياسى المحكم اللبق فى مستوى عادى،أما ما كان

بعد الجولة الأولى دن دسيسة عمرو فيما يتصل بالمسيح،عند ملك على شعب شديد الحساسية لكل ما يتصل بالعقيدة،فتلك وإن لم تنجح خارج عن إرادة عمرو،وهو يقظة عقل النجاشى وضميره،هى العلامة على قدرة خارقة فى الدهاء والمكيدة،تعده بآخرة من العمر لضرر لا يكاد يعدل أثره الحاسم أثر فى حياة الدولة الإسلامية.

(٥)

لم تكن الحبشة هى معركة عمرو الوحيدة ضد الإسلام،لقد كان له تاريخ حافل ومديد على طول عشرين سنة أو أكثر فى محاربة الإسلام والمسلمين،فقد قضى النبى ثلاث عشرة سنة بعد بعثته فى مكة إلى أن هاجر إلى المدينة،وفى المدينة بعد الهجرة النبوية انقضت سنوات ثمان إلى أن قدمها عمرو بن العاص مبايعا للإسلام،ولقد قيل إنه إنما كان يعادى الإسلام انقيادا لأبيه الذى كان يعتز به أشد اعتزاز،وأنه ما كان ليسلم وأبوه على قيد الحياة، فلما مات أبوه انتهى أمره إلى الإسلام.

لا يسلم نظمى لوقا بهذا الكلام بالطبع،بل يرى أنه يحتاج إلى الوقوف عنده بعض الشئ،فها هو عمرو نفسه يقول لإبنه عبد الله حين حضرته الوفاة بمصر:بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم فكنت أكره الناس لما جاء به،أتمنى لو أنى قتلته....لم يقل كنت أكره ما جاء به محمد فحسب،بل قال : كنت أكره الناس لما جاء به أى أشد الناس بغضا له،وليس فى هذا القول ما يدل إلا على تطرف وحماسة فى عداء محمد ورسالته.

ولا يستقيم أن يكون هذا بالوكالة أو من باطن شخص آخر،ولو كان أباه،وليس أدل على استماتة عمرو فى عداء الإسلام والمسلمين من أنه لم يكن سفير قريش إلى النجاشى ضدهم بآخرة من الزمن فحسب،بل كان منذ بداية البعثة المحمدية لسانا من أقذع الألسنة التى أثيرت فى قريش لهجو النبى وتكذيبه وتحقير شأنه،وله فى ذلك شعر يذكره الذاكرون.

وقد مرت بعد سفارته إلى الحبشة الخائبة سنوات لم يتغير فيها سلوك عمرو بن العاص، وهاجر النبى إلى مكة،وعمرو مشغول بشئون قريش وحربها للنبى.

لقد رجحت الأقوال أن العاص بن وائل مات بعد هجرة الرسول بشهر واحد،ولكن انقضت سنوات ثمان بعد موت أبيه قبل أن يهاجر عمرو إلى المدينة ويسلم،إذن لم يكن أبوه وسلطانه عليه هو الذى منعه من الإسلام.

وقد سئل عمرو بعد إسلامه:ما أبطأ بك عن الإسلام وأنت فى عقلك؟

فأجاب:«إنا كنا فى قوم توازن حلومهم الجبال،ما سلكوا فجا فتتبعناهم إلا وجدناه سهلا،فلما أنكروا على النبى صلى الله عليه وسلم أنكرنا معهم،ولم نفكر فى أمرنا وقلدناهم،فلما ذهبوا وصار الأمر إلينا نظرنا فى أمر النبى صلى الله عليه وسلم،فإذا الأمر بين فوقع الإسلام فى قلبى».

(٦)

شارك عمرو بن العاص فى غزوة الخندق التى لحقت بالمشركين فيها هزيمة منكرة،ويقول عمرو عن ذلك:«لما انصرفنا مع الأحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى،فقلت لهم:تعلمون والله إنى أرى أمر محمد يعلو علوا منكرا،وإنى رأيت أمرا فم ترون فيه؟

قالوا:وماذا رأيت؟،قال:رأيت أن نلحق بالنجاشى فنكون عنده،فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى،فإما أن نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد،وإن ظهر قومنا فنحن من قد عرفوا،فلن يأتينا منهم إلا الخير،قالوا:إن هذا نعم الرأى،قلت:فأجمعوا لنا ما نهديه له،وكان أحب ما يهدى إليه من أرضنا الأدم(الجلد) فجمعنا له أدما كثيرا ثم خرجنا حتى قدمنا عليه.

وهنا يتدخل نظمى لوقا،يقول:«فى هذا ما يدل على أن عمرو بن العاص ذو

طبيعة عملية،وليس صاحب طبيعة نظرية،وتزيد الأمور وضوحا فنقول : أنه لم يكن الرجل الذى يضع نفسه فى خدمة الشعارات المثالية،بل يحرص على أن يستخدم الأحداث الواقعية لخدمة أغراضه،ولا يسمح لشئ ولا لأحد باستخدام شخصه أو مواهبه وكفاءته العالية إلا مقدار ما يتمشى ذلك مع ما يريد».

فعندما وجد عمرو الموقعة بعد الموقعة تتجلى عن انتصار محمد وصحبه لم تفته عبرة هذه الانتصارات وهو القائد المطبوع الذى يحسن قبل كل شئ تقدير الموقف تقديرا موضوعيا لا يخدع فيه نفسه حتى لا يؤخذ على غرة.

ومن ناحية ثانية ليس مثله من ينساق وراء المثالية،فليس فيه شئ من خلائق المطبوعين على الاستشهاد – كالحسين بن على مثلا – وإنما هو طالب نصر أينما كان النصر،فكيف يسمح لتيار التاريخ أخذ هديره يملأ سمعه المرهف أن يغرقه فى طوفانه الهائل؟

ومن جهة ثالثة ينبغى ألا يفوتنا أن فريق قريش وأحلافهم لم يكن لهم عقيدة تملأ جوانب النفس،ويرتخص فى سبيلها النفس والنفيس،وإنما هى نعرة التقاليد وعنجهية السلطان القائم على هذه التقاليد،وهيهات تكون للات والعزى وغيرهما من أوثان قريش الشائهة هيمنة تقنع عقلا ذكيا مثل عمرو بن العاص،فلم يكن كفاحه ضد محمد وصحبه ودعوته عن إيمان بحق ثابت يهون فى سبيله البذل والفداء،بل عن تمسك بالإطار الذى يتوقع أن يحقق فيه مطمحا يليق بابن العاص بن وائل السهمى فى الثراء والرئاسة،وليس كالحرب والسياسة مجال البروز والتفوق يستهوى كل طموح مؤمن بعبقريته.

وها هو على امتداد ما يقرب من عشرين عاما قد جرب مكائد السياسة وبلاغة القوافى ووقائع القتال المسلح ومساعى السفارة وراء البحار،من غير أن يظفر هو أو

قريش من محمد ودعوته،بل إن الأمر على العكس من ذلك تماما،ففريق محمد يزداد فى كل يوم عددا وعزة ومنعة،والاحتكام إلى السيف حجة ناهضة أكثر من كل حجة منطقية فى نظر رجل مطبوع على صفات الجندية والقيادة،واتساع النفوذ بين القبائل رغم قلة الموارد،حجة تنهض من كل حجة عند رجل مطبوع على السياسة والتفكير العملى،وعمرو كان مطبوعا على الجندية والدهاء والتفكير العملى جميعا.

(٧)

لكن السؤال هو:كيف راجع نفسه فى شأن الإسلام؟

إن ما حدث لعمرو لم يكن مراجعة،بقدر ما كان انقلابا داخليا فى سريرة هذا الجاهلى الذى كان قطبا من أقطاب قريش فى حربها وسياستها،إن سياسة مثل عمرو بن العاص أشبه بحركة المد البحرى الذى لا ينقلب تياره فجأة،بل يبلغ ذروته ثم يأخذ بعد برهة فى الانحسار شيئا فشيئا.

ومهما بلغ من مراجعة النفس فلابد من فترة لإعادة الحساب أكثر من مرة،قبل أن يكون الانقلاب مقبولا وممكنا،وهو انقلاب داخلى فى باطن سريرة عمرو،لذا يجب أن نتوقع مقاومة من داخل هذه السريرة تتجمع فيها رواسب الوراثة،ونفوذ ماضى حياته وارتباطاته الظاهرة والباطنة، مقاومة تتحمل الأسباب والمبررات لتعويق الانقلاب وتغيير المعسكر من النقيض إلى النقيض.

كان هذا هو أوان الحاجة إلى مرحلة انتقالية،وأول بوارد هذه المرحلة الانتقالية التى تمهد للانقلاب الحاسم،أن ينفض يده من المعسكر الذى سلخ قرابة عشرين عاما وهو يؤازره باللسان والسيف والحيلة،وينعزل عزلة من يطاول آماله السابقة إلى أن يتبين انقطاع كل سبيل إليها،فينقلب من وجهتها انقلاب من لا حيلة له ولا بقية من أمل لديه.

كان السؤال هو:كيف ينعزل عمرو عن قريش وهو فى قريش؟

لابد إذن من عزلة فى المكان تلائم العزلة فى الرأى والسلوك،ومعنى هذا بعبارة أخرى أنه ليس عن النفى الاختيارى أو الهجرة المؤقتة محيص،إلى أن يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود،ولا تبقى فى عاقبة الأمور مماحلة.

لكن هل يذهب الفارس إلى هناك بمفرده؟

لم يكن عمرو فريدا فى حالته الفكرية والنفسية تلك فى هذه المرحلة من الصراع بين قريش وبين محمد وصحبه،وإنما عمرو بن العاص نمط بارز لطباع من على شاكلته من رجال قريش،وليس معنى أنهم على شاكلته أنهم فى مثل عبقريته ومقدرته ونفاذ بديهته ودهائه،بل معناه أنهم فى معدنه النفسى،وإن لا إيمان وطيد يربطهم بقريش،وأن تفكيرهم العملى يبغض إليهم أن يكونوا فى الحزب الخاسر،الذى تدور عليه الدوائر وشبيه الشئ منجذب إليه.

لقد بدأ الانقلاب الكبير فى حياة عمرو بن العاص يوم أيقن وهو يتقن رصد التغيرات فى الأجواء المحيطة به،أن كفة محمد راجحة رجحانا لا شك فيه،فآثر أن يكون بعيدا عن متناول يده حينما يتم له النصر.

خرج عمرو من مكة إلى الحبشة،ومن هناك راح يرقب ما يحدث عن بعد،وكأنما يبرئ ذمته باطنيا من التعجل بالانتقاض على حزبه القديم،ولم يصبر سنة واحدة،بل صبر ثلاث سنين توالت فيها النذر بانتصار محمد وصحبه على طول الخط.

(٨)

والآن جاء خبر إسلام الرجل.

بعد صلح الحديبية كان العرب يقبلون على الإسلام إقبالا واضحا،ومثل عمرو يحسن تقدير المواقف الحربية والسياسية،ويعلم أن ثمرة الفتح قد نضجت وحان

قطافها بيد النبى،وبذلك لم يبق أمام عمرو إلا أن يسلم،فإن تأخر عن هذا الوقت كان مفرطا فى رأى نفسه،وليس فى التأخير بارقة رجاء.

يقول عمرو بن العاص عما جرى:«خرجت من الحبشة عامدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم،فلقيت خالد بن الوليد،وذلك قبيل الفتح،وهو مقبل من مكة، فقلت:أين تبغى يا أبا سليمان؟قال خالد:والله لقد استقام المنسم (أى تبين الطريق) والرجل لنبى،أذهب والله فأسلم،فحتى متى أتأخر؟فقلت:والله ما جئت إلا لأسلم».

ويكمل عمرو ما جرى:«فقدمنا إلى المدينة على رسول الله صلى الله عليه وسلم،فتقدم خالد بن الوليد فأسلم وبايع،ثم دنوت فقلت:يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر لى ما تقدم من ذنوبى ولا أذكر ما تأخر،فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:يا عمرو بايع،فإن الإسلام يجب (يلغى) ما كان قبله،وأن الهجرة تجب ما كان قبلها،فبايعت وانصرفت».

(٩)

بعد إسلامه وثق النبى صلى الله عليه وسلم فى عمرو بن العاص،رغم أنه لم يسلم إلا قبيل الفتح،وقد أصبح المشركون على حد تعبير خالد بن الوليد بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه دلو ماء لخرج،وكان عمرو يقول:«والله ما أدرى أكان ذلك من النبى حبا أم استعانة بى»...وقال عمرو أيضا:«ما عدل بى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبخالد بن الوليد أحدا من أصحابه فى حربه منذ أسلمت».

فهذا القائد النبى كان أعرف الناس بطاقات من تحت إمرته من الرجال،وهو بمكانته العليا فوقهم حقيق حين يرفعهم إلى مستوى الثقة أن يحفزهم إلى الاستماتة لاستحقاق ثقته التى يبذلها لهم،يبادؤهم بها فى إحسان ظن ليس أفعل منه فى تربية

البشر صغارا وكبارا،وفى ابتعاث قرداتهم الكامنة وتسابقهم إلى أن يكونوا عند الذى أسلفه من حسن ظنه بهم.

(١٠)

بعد موت الرسول صلى الله عليه وسلم،كان عمرو بن العاص أحد القواد الأحد عشر الذين عقد لهم أبو بكر الألوية لحرب المرتدين،عمرو الذى أسلم قبيل فتح مكة،وحارب الإسلام نيفا وعشرين عاما حين لم تطب نفسه أن يرى محمدا يسود العرب أجمعين،ها هو عمرو بن العاص هذا بنفسه وقد صار من حماة الإسلام حين انتفض على الإسلام إخوان له من قبل.

كان ذلك انقلاب عميق الأبعاد فى تفكير عمرو وإحساسه فى ذلك الأمد القصير،وقد وجد فى ذلك الدين ما حقق به من ذاته ما لم يتح له فى الشرك طيلة عمره،فصار قائد محمد ثم صار سفيره،ثم صار والى محمد أو عامله على الصدقات،وكأنما هذا الرجل قد وجد نفسه بعد أن أضاعها ذلك الردح الطويل.

لقد كان انتقاض العرب على الإسلام انتقاضا فى رأى عمرو ووجدانه على كيان عام وعلى عقيدة يجد فيها مجاله النفسى من جميع الوجوه،فهو لا يتصور كيف تدول هذه الدولة وعقيدتها،بعد أن جمعت العرب لأول مرة تحت لواء واحد،وتوشك أن تجتاح بهم آفاق الدنيا،ونفس الرجل الطموح الناجح الذى يعيش لطموحه ونجاحه لا تتصور التفت بعد الجماعة،والشتات بعد البأس،والتخاذل بعد الفتوة،وإذا دالت هذه الدولة فلا إمارة ولا سلطان لأحد،وإذا خمدت هذه العقيدة عادت الجزيرة شراذم تهيم فى حماية الشرك.

والخلاصة أن قضية الإسلام تعنى عند عمرو بن العاص بحكم العقيدة وبحكم التكوين النفسى العملى الطموح،ومصلحة العقيدة هنا ومصلحته الخاصة شئ

واحد فى مفترق الطرق العسير بين الكفر والإيمان.

(١١)

بعد أن فتح عمرو بن العاص مصر،فكر فى فتح مصر،فقد قدر للعرب أن يكون قائدهم وصاحب فكرة فتحها عمرو بن العاص،ولسنا نقول: أنه صاحب فكرة فتحها ابتداء،بل فى هذا الوقت المعين من نشأة الدولة الإسلامية،فالغالب على أقلام الكتاب فى الشئون العربية والإسلامية أن فتح مصر كان أمرا مقدورا ووعدا لأوان موقوت،فالنبى قد قال لصحابته الأقربين:«ستفتحون مصر...وهى أرض يسمى فيها القيراط ..فاستوصوا بأهلها خيرا،فإن لهم ذمة ورحما».

ولا غرو فهاجر أم إسماعيل بن إبراهيم جد النبى وجد قريش الأعلى كانت مصرية، ومارية القبطية التى ولدت للنبى ابنة إبراهيم كانت مصرية وحسب الرحم والذمة هاتان الآصرتان،وكذلك قال النبى لصحابه الأقربين فى مناسبة أخرى:إذا فتح الله عليكم مصر فاتخذوا بها جندا كثيفا.

وبذلك كان المسلمون فى حياة النبى وبعد وفاته موقنين أنهم سيفتحون الأراضى المصرية وينزعون ملكها من الروم،أما أوان ذلك ففى بطن الغيب،وكأنما كان عمرو بن العاص أداة هذا الغيب أو إن جاز القول كانت القابلة التى استخرجت هذا الفتح من أحشاء الغيب.

وفى إقناعه للخليفة عمر بن الخطاب بضروة فتح مصر،قال عمرو بن العاص عن الخطر المرتقب من مصر:«إنه عائق كئود إذا أجل،ميسور التذليل إذا عوجل قبل استقراره»،وأدرك الحاكم المطبوع عمر بن الخطاب رأى القائد المطبوع عمرو بن العاص ووجه إلى فتح مصر.

استطاع عمرو أن يهون على الفاروق فتح مصر،بحيث رضى أن يسيره إليها فى

جيش لا يتجاوز أربعة آلاف مقاتل؛لأنه ما كان ليضعف جيوش العرب بأكثر من هذا القدر،ووعده المدد إن احتاج إليه فيما بعد.

وتجمع سائر الروايات على تصوير تردد عمر وإصرار عمرو،وانظر إلى قول الرواية أن عمرو بن العاص ألح على الفاروق فى أن مصر أكثر الأرض أموالا على سبيل الإغراء،ثم فى أنها أعجزها عن القتال والحرب،على سبيل التهوين من المجازفة،ولابد أنه كان تهوينا ناجحا جدا،حتى لقد أجاز له أن يبدأ الفتح بأربعة آلاف ، وقيل: ثلاثة آلاف وخمسمائة.

ومما يسترعى النظر ولا شك فى هذا المقام إمعان عمرو فى الإصرار على الفتح،عن فرط اقتناع بقدرته عليه لضعف مصر الشديد،حتى لقد عمد إلى استخدام دهائه المعروف فى استمهال حامل الرسالة إلى أن يستريح من وعثاء السفر قبل أن يجازف بتسلم على رسالة منه،حتى يكون قد دخل جزءا من مصر ولا شك فى ذلك،فلا يكون أمام الفاروق فى مناص من تركه يمضى،ومن إمداده بعد ذلك كى يتم ما بدأه،لأن النكول بعد الدخول فى الأراضى المصرية فيه استجراء الروم وإشعارهم بضعف العرب عنهم – وذلك يعد هزيمة سلفا،ويوهن إيمان العرب وثقتهم بأنفسهم،وهذه الثقة كانت،لا العدد والعدة – عمادهم الأكبر فى الانتصار على من يحاربونهم.

تفاصيل الفتح معروفة،لكن أول ما يسترعى النظر أنه كان ينتقل بين المواقع ويهاجم البلاد والحصون والأقاليم على غير نسق واضح منتظم،فهو مثلا يترك حصن بابليون حين طال حصاره ويبعث السرايا إلى الصعيد موغلا فيه،ومن البلاهة أن يتناول أحد هذا القفز،على غير نسق واضح بأن عمرو بن العاص كان جاهلا بأصول الحرب التقليدية،هجاما على الأخطار فى غير دراية،وليس الأمر هكذا،ولسنا نرى فى ماضى سيرة عمرو ما يؤيد حماقته بل ما يؤيد حنكته ودهاءه.

(١٢)

برأ نظمى لوقا عمرو بن العاص من حريق مكتبة الإسكندرية ليس بأدلة عقلية فقط ، ولكن بأدلة تاريخية أيضا،وكان أهم ماعاناه هو قيامه بتأسيس الدولة المصرية،فقد كانت أمامه فرصة سانحة لزيادة رقعة الدولة الجديدة التى كان يشعر وله بعض العذر،أنها دولته الخاصة التى أقامها بعبقريته العسكرية والسياسية،ثم ما كان ليغيب عنه وهو القائد المطبوع أن للروم دولة وشواطئ مفتوحة على بحر الروم فى غرب الأسكندرية،فى ليبيا وطرابلس وبرقة وكانت تلك كلها تسمى المغرب،أى ما يقع جهة الغرب من مصر.

وكان ترتيب البيت الشغل الشاغل بعد تأمين الحدود،وأول ما ينظر فيه مؤسس الدولة الجديدة أن تكون لسلطانه عاصمة يجعل فيها كرسيه كما يقولون،ومع ذلك أنه اتخذ عمرو الفسطاط إما عن رأى شخصى وإما بتوجيه من الخليفة الفاروق، ونحن نميل إلى جعل ذلك عن رأيه أو اقتراحه؛لأن الإسكندرية مرفأ يصلح عاصمة لولاية تتبع بيزنطة ويصلها بها البحر الأبيض،أما عاصمة الولاية العربية فلا يعقل أن تكون ذلك المرفأ،بل مكانا بين الزرع والنيل والصحراء،وموقعها متوسط بين مصر السفلى ومصر العليا،وعلى طريق الصحراء إلى جزيرة العرب،ثم على طريق مجرى الخليج الذى أعاد عمرو فتحه من بابليون إلى القلزم السويسى،فما من موقع أصلح من الفسطاط لحكم ولا يقصر وللاتصال بعاصمة الدولة الكبرى فى المدينة،وكان الفراعنة من قبل يتخيرون هذه المنطقة لعاصمة الوجهين القبلى والبحرى،ولم تصبح الإسكندرية عاصمة إلا على عهد الغزو المقدونى حيث الصلة بالبحر أولى الاهتمام والملاحظة عند إقامة كرسى الملك.

***

(١٣)

ثم يأتى حديث الفتنة الكبرى...الذى لولا كان عمرو فى جانب معاوية لما ربح على ابن أبى طالب،فقد كان عمرو يعرف أن لمعاوية عملاء فى جيش على،يتظاهرون بنصرته، وإنما هم بمثابة الطابور الخامس بمصطلح هذه الأيام،وهؤلاء العملاء منهم بعض أقطاب جيش معاوية،ومهمتهم أن يشيعوا بين الجند ما يشاء معاوية من تخرصات ويفرقوا الكلمة المجتمعة،ويحدثوا البلبلة التى تفعل ما لا تفعله الهزيمة بالسلاح فى أزمات الأمم،فكانت هذه الحيلة التى ابتدعها ذهن عمرو بداية الفشل والفرقة فى صفوف أنصار على،ومتى وقعت الفرقة تمت لذى الحيلة والسيادة...فرق تسد.

وهذه الحيلة البارعة هى التى بدأ بها تغير مجرى تاريخ الدولة العربية ذلك التغير الحاسم،من دولة دين إلى دولة دنيا، ومن خلافة عقيدة ومبدأ إلى ملك واستبداد ، فليس مصر طعمة لعمر ثمنا باهظا لصاحب الرأى الذى أغنى معاوية حيث لم تغن عنه الجيوش والأموال وحدها.

وعندما تحاكم عمرو بن العاص وأبو موسى الأشعرى استخدم عمرو الحيلة،احتكم الحكمين فى دومة الجندل،واتفقا على إعلان خلع الرجلين،كل منهما يخلع صاحبه،ثم يتركان الأمر فى البداية للناس يختارون ثالثا لم يشترك فى الفتنة،وحينئذ تظهر الدعوة لعبد الله بن عمر كأنما جاءت من غير تدبير سابق.

فى موعد إعلان نتيجة التحكيم أصر عمرو بدهائه على تقديم أبى موسى الأشعرى،يتملق غروره متعلل بسبقه إلى صحبة النبى ولتقدمه فى السن واشتهاره بالورع،ويقال : ان ابن عباس نصح لأبى موسى الأشعرى أن يتأخر ليدع ابن العاص يتكلم أولا،ويجعل لنفسه الكلمة الأخيرة،ولكن أبا موسى أبى إلا التقدم متعللا بأنه لا يأبى الكرامة إلا لئيم.

قام أبو موسى فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أنهما قد رأيا صلاح هذا الأمة فى لم شعثها وترك الفرقة،ولذا اتفقا على خلع على ومعاوية معا،ورد الأمر إلى الأمة تولى من تحب،وأشهد الناس على أنه قد خلع عليا ومعاوية كما يخلع خاتمه هذا.

ثم قام ابن العاص فحمد الله وأثنى عليه وقال:إن هذا قد خلع صاحبه وأنا أخلعه مثله ولكنى أثبت صاحبى،فقال أبو موسى:مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت،إنما مثلك كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث وإن تتركه يلهث،فقال له عمرو:إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارا.

وهكذا فسد الأمر على على،وتفرقت كلمة أصحابه،ورجحت كفة معاوية بعد أن كادت تميل إلى آخر الدهر،اتسع له الوقت لراحة رجاله والاستعداد لتجدد القتال،وقد شدد من عزمهم تشيت صاحبهم وعزل على على يد صاحبه،واختلاف أنصاره وخروج الخوارج منهم حتى صار بأسهم بينهم شديد.

(١٤)

ويسأل نظمى لوقا سؤاله الأخير عن عمرو بن العاص،يقول: أكان عمرو صانع عصره؟

ويجيب:كلا لا مراء،بل كان عمرو منتفعا بعصره،اتخذ كل التيارات المتضاربة فيه مطية إلى أغراضه ومطامعه،واستطاع بقدراته أن يوجه أحداث عصره،حينما أمكنته أزمات أمته من ذلك،مستخدما قوة اندفاع التيار الغالب كى يحقق ما ستباحه لنفسه من أهداف،ومثله يعتبر نافذة صالحة على العصر الذى عاش فيه؛ لأنه يجيد تشمم الريح الغالبة فيتجه معها،فهو لا يروم إلا الغنم فى كل ما فعل،وبحاسته تلك يحدد دائما المعسكر الذى تكتب له الغلبة،فإذا تحولت ريح الكسب تحول معها؛ لأنه لا يدين بالولاء إلا للمغنم والطموح العريض.